NYROUF

التراث الإنسانية

إعترافات القديس أوغسطين

الهيئة المصرية العامة للكتاب

د. زكريا إبراهيم

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

الانجلو المصرية والفنى	وزارة الإعلام
محمود الهندى	وزارة التعليم
مراد وسيم	وزارة الحكم المحلى
احمد صبيحة	المجلس الأعلى للشباب والرياضة

المشرف العام

د . سمير سرحان

إعترافات القديس أوغسطين

د . زكريا إبراهيم

١ ـ مقدمة عامة

رسم أحد الباحثين المعاصرين شجرة مفصلة للفلسفات الوجودية ، فأدخل فلسفة القديس أوغسطين جنبا الى جنب مع فلسفة سقراط وفلسفة الرواقيين ضمن ما سماه باسم « جذور الشجرة الوجودية » . ولئن كان من التعسف في رأينا أن ننسب الى القديس أوغسطين « فلسفة وجودية » بالمعنى الاصطلاحي الدقيق لهذه الكلمة ، الا أنه من المؤكد أن تفكير أوغسطين قد اتسم بطابع وجودي واضح ، نظرا لأن هذا التفكير قد نبع من أعماق حياته الروحية ، فكان ثمرة لما عاناه صاحبه من صراع حي وتوتر عنيف وثراء باطني . الخ . والحق ان أوغسطين قد عاش فلسفته وفلسف حياته ، فلم ينفصل وجوده لحظة عن مذهبه ، ان لم نقل بأن هذا المذهب نفسه لم يكن سوى سلسلة من الخبرات المتأنية التي كابدها هذا المفكر المسيحي . واذن فليس بدعا أن يذهب كثيرون الى وجود

« بذور وجودية » في فلسفة أوغسطين ، خصوصا وأن فيلسوفنا قد قدم لنا « سيرة ذاتية » صور لنا فيها تطوره الروحي ، وأظهر لنا من خلالها على الصلة الوثيقة التي طالما جمعت بين حياته وفكره . وليست هذه « السيرة الذاتية » سوى كتاب « الاعترافات » الذي أجمع كثير من مؤرخي الفلسفة على اعتباره « تحفة نادرة » في تاريخ التراجم الذاتية التي انحدرت الينا من القرون الأولى للمسيحية ، أو على الأصح من عهد آباء الكنيسة الأولين .

واذا صح أن الفلسفة الوجودية انما تنطق بلسان الموجود البشري الذي يضع وجوده موضع التساؤل ، فقد لانجانب الصواب اذا قلنا اننا نجد في تضاعيف كتاب « الاعترافات » أول صورة ضمنية من صور هذه الفلسفة .

وآية ذلك أن القديس أوغسطين يقول في هذا الكتاب بصراحة : « لقد أصبحت أنا نفسي مشكلة كبرى بالنسبة الى نفسي .. » . ومثل هذه العبارة انما تدلنا بوضوح على أن أوغسطين قد فطن الى خطورة ذلك الاشكال الوجودي الذي تحمله الذات البشرية في أعماق وجودها ، فحاول أن يصور لنا في اعترافاته نزوع النفس البشرية نحو فهم موقفها وتحديد علاقاتها بالله والعالم والآخرين . وليس من شك في أن كثيرا من الخبرات المعاشة التي وصفها لنا أوغسطين انما تكشف لنا عن قلق تلك الذات البشرية التي تجد نفسها دائما متأرجحة بين الوجود والعدم ، بين

الأبدية والزمان ، بين الأمل واليأس ... الخ فليس كتاب « الاعترافات » مجرد ترجمة ذاتية للقديس أوغسطين ، بل هو أيضا دراما حية تصف لنا السبيل الشاق الذى تنتهجه النفس البشرية فى بحثها عن « الخلاص » أو « النجاة » .

٢ ـ سيرة القديس أوغسطين

ليس من العسير على المؤرخ أن يكتب وصفا تفصيليا لحياة القديس أوغسطين ، فقد تكفل هو نفسه بالترجمة لسيرته ، فضلا عن أن صديقه وتلميذه بوسيديوس Possidius قد قدم لنا سيرة مطولة له ، أيد فيها معظم ما أورده أوغسطين نفسه فى اعترافاته . ولن نطيل الحديث عن حياة القديس أوغسطين ، ما دمنا سنتعرض بالتفصيل ـ فيما يلى ـ لمضمون كتابه ، وانما سنقتصر على ذكر الخطوط العريضة فى حياته ، دون التوقف عند تحليل دلالاتها النفسية . وحسبنا أن نقول ان أوغسطين قد ولد بمدينة تاجسطه Thagaste (الواقعة بالقرب من تونس) فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ٣٥٤ ميلادية ، من أم مسيحية وأب وثنى . والظاهر ان هذه النشأة المزدوجة التى كان على أوغسطين منذ صباه أن يتحمل آثارها ، قد ولدت فى نفسه ضربا من الصراع العنيف ، فكان على الصبى

أن يحاول ارضاء أمه التى كانت متدينة كاشد ما يكون التدين ، كما كان عليه فى الوقت نفسه أن يشبع طموح أبيه الذى كان لا يأبه الا بتهيئة مستقبل ناجح لولده الصغير . ولم يلبث أوغسطين أن وجد فى صحبة السوء متنفسا واسعا لاشباع شهواته وأهوائه ، فانقاد لسحر اللذة ، وانتهج طريق الغواية . وقد روى لنا أوغسطين فى اعترافاته كيف كانت نفسه بطبيعتها جامحة متمردة ، وكيف كان الجانب الحسى الشهوانى فيها قويا عنيفا الى أقصى حد ، لدرجة أن والدته لم تستطع أن تكبح جماح نفسه ، أو أن تضع حدا لشهواته العارمة . وليس فى استطاعتنا أن نتوقف طويلا عند كل ما أورده أوغسطين عما مر به فى طور المراهقة من أحداث وتجارب ، وانما حسبنا أن نقول ان فيلسوفنا قد اعترف بأنه انساق فى شبابه للطيش والتهور ، فكان يحب لمجرد الحب ، وكان يجد لذة كبرى فى الا يستجيب مما اعتاد الناس أن يستجيبوا منه ! وهكذا كانت حياته ـ فى هذه الفترة ـ مصدر ألم عميق لوالدته المسيحية المتدينة ، حتى انها كانت تذرف الدمع مدرارا على حياة ابنها الضال الذى ظل سادرا فى غيه ...

بيد أن أوغسطين الشاب قد أظهر مع ذلك امتيازا كبيرا فى دراساته ، فلم يشأ أبوه أن يستبقيه الى جواره ، بل سرعان ما بعث به الى مادورا Madaura لتعلم الخطابة،

ثم من بعد الى قرطاجنة Carthage لمواصلة دراساته العليا . وهناك استطاع أوغسطين أن يظفر ببعض الشهادات العليا ، فأصبح معلما للبيان . وفي هذه الفترة من حياته ، وقعت بين يديه (بطريق الصدفة) محاورة هورطانسيوس Hortansius . لشيشرون ، فاتجهت نفسه نحو محبة الحكمة ، بدلا من الاقتصار على محبة اللذات وحدها . ولكن الصراع قد بقي عنيفا في نفسه بين حب اللذة وحب الحكمة ، فلم يلبث أن وقع تحت تأثير المانوية ، خصوصا وان هذه الشيعة كانت هي الكفيلة باشباع حاجته المزدوجة . هذا الى أن المانويين كانوا يزعمون أنهم قد اهتدوا الى اليقين . وهذا بعينه هو ما كان أوغسطين ينشده متسائلا : « ما الحقيقة ، وكيف السبيل اليها ؟ » . ثم ان المانوية كانت تقول بالثنائية : فكان أهلها ينادون بوجود أصلين هما النور والظلمة أو الخير والشر . ولما كان هذا الأصلان في رأيهم قديمين ، فقد كانوا يذهبون الى أنه ليس في وسع المرء أن يتخلص منهما . ولاشك أن أوغسطين قد وجد في هذا الزعم ما يبرر سلوكه الشهواني الفاجر ! وهكذا اطمأنت نفس أوغسطين — حينا من الزمن — الى مذهب المانوية ، حتى شاء الله لها أن تفطن الى ما يثيره هذا المذهب من اشكالات لا يقدم لها أي حل ، فكان أن تحول أوغسطين عن المانوية بعد أن ظل

واقعا تحت تأثيرها قرابة تسع سنوات كاملة كان خلالها صاحب نزعة عقلية متطرفة .

ثم انتقل أوغسطين الى روما ، وهناك بدأ الشك يراوده في صحة الكثير من تعاليم المانوية ، ولم يلبث أن وجد في كتب الشكاك من رجال الأكاديمية الجديدة ما يوافق حالته النفسية في ذلك الحين ، فعكف على قراءة كتبهم ومناقشة آرائهم ، وخيل اليه أنه اقتنع بأقوالهم في استحالة اليقين وضرورة الاقلاع عن كل بحث يستهدف المعرفة ! ولكن روح أوغسطين القوية العارمة ما كانت لتركن الى الشك أو تقنع بالارتياب ، فلا غرو أن نجدها تجتاز بسرعة هذه المرحلة المؤقتة التي اتسمت بالتردد والقلق والحيرة . وهكذا استطاع أوغسطين عام ٣٨٦ ميلادية أن ينتصر على شكوكه ، فكانت هذه السنة بمثابة نقطة تحول هامة في كل حياته الروحية . وقد وصف لنا أوغسطين بالتفصيل شتى العوامل التي أدت به الى اجتياز مرحلة الشك والظفر بنعمة اليقين والايمان ، كما سنرى فيما بعد عند تحليلنا لكتاب « الاعترافات » .

ولكن أوغسطين لم يصل الى المسيحية الا عبر تعاليم الأفلاطونية المحدثة : فقد وجد في كتب الأفلاطونيين المنقولة الى اللاتينية حلا لكثير من مشكلاته العقلية ، كما

لقى فيها اشباعا لنزعته العقلية التى كانت تنشد اليقين وتلتمس الوضوح ، وتبغى المعرفة . ولئن اختلف المؤرخون حول مدى اقتناع أوغسطين بتعاليم الأفلاطونية المحدثة ، الا أنهم مجمعون - أو شبه مجمعين - على القول بأن فلسفة الأفلاطونيين المحدثين قد اقتربت بأوغسطين من أعتاب الكنيسة المسيحية ، فلم يلبث أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من تعاليم الكتاب المقدس . حقا ان الأفلاطونية وحدها لم تستطع أن تحل أزمته النفسية ، كما أنها لم تنجح فى التخفيف من حدة الصراع بين الروح والجسد فى أعماق تلك الشخصية العنيفة الجامحة ، ولكن من المؤكد أنها مهدت السبيل أمام أوغسطين للاقتناع بالنظرية المسيحية فى « الكلمة » أو « اللوغوس » Logos .

ثم لم يلبث أوغسطين أن التقى فى ميلانو بالقديس أمبروسيوس (أمبرواز) St. Ambroise أسقف المدينة ، فكان لهذا القديس تأثير كبير فى حياة أوغسطين : اذ استطاع أن يحل له الكثير من المشكلات التى كانت تؤرقه . وكان القديس أوغسطين - فى هذه الفترة - يديم التفكير ويمعن النظر ، كما كان بعض أصدقائه يشجعونه على قراءة الكتاب المقدس والتعمق فى فهم معانيه ، فعكف فيلسوفنا على مالطعة رسائل القديس بولس ، وبدا يتاثر بما تنطوى عليه تلك الرسائل من حقائق سامية ومعان جليلة . وبينما كان أوغسطين يوما جالسا فى حديقة

صحبة بعض أصدقائه ، اذ اضطربت نفسه بما فيها ، وأخذت الدموع تتساقط غزيرة من عينيه ، فقام يبكى صائحا : « الى متى هذا التسويف ؟ ولماذا أقول غدا غدا ؟ لماذا لا تكون هذه اللحظة نفسها هى الحد النهائى الحاسم لعهد الطيش والنزق ؟ » . وفى تلك اللحظة كان الى جواره صبى يرنم قائلا : « خذ واقرأ » : Tolle, Lege فاعتبر أوغسطين هذا الصوت بمثابة نداء الهى ، وأخذ الكتاب المقدس وفتحه ، فكان أول ما وقع عليه بصره هو قول القديس بولس : « ... انها الآن ساعة لنستيقظ من النوم . قد تناهى الليل وتقارب النهار ، فلنخلع أعمال الظلمة ، ولنلبس اسلحة النور ... الخ » . (رومية ١٣ : ١١ ـ ١٤) . وما أن استقرت فى ذهنه معانى هذه الكلمات ، حتى غمرت السكينة قلبه ، فامتلأت نفسه بالسلام العميق ، ونعمت روحه بالراحة الكاملة .

وقد تلقى أوغسطين طقس « العماد » على يد القديس أمبروسيوس عام ٣٨٧ ، فاكتملت له بذلك نعمة الايمان ، وتحققت لوالدته أعز امانيها فيه . ولكن أوغسطين قد بقى يشعر دائما بأن معرفته لله قد جاءت متأخرة ، فكان يهتف قائلا : « بعد لأى ما أحببتك يا الهى ! » :
Sero te amavi . ومنذ ذلك الحين ، عجر أوغسطين مهنة تعليم الخطابة ، واشتغل بدراسة المسيحية والدفاع عنها .

فالف فى ذلك الكثير من الكتب القيمة والدراسات الهامة ، ووضع العديد من الرسائل الدقيقة والشروح العميقة فى تفسير أجزاء متفرقة من الكتاب المقدس . ومن أهم مؤلفاته رسالته فى « الرد على الأكاديميين » Contra Academicos ، وكتابه المسمى باسم « الحياة السعيدة » De beata vita ، ومصنفه المشهور المعروف باسم « المناجاة » Soliloquiorum ثم كتابه فى « خلود النفس » : De immortalitate animae ، علاوة على كتب أخرى عديدة فى « حرية الارادة » : De libero arbitrio وفى « الديانة الحقيقية » De vera religione وفى « فائدة الاعتقاد » De utilitate credendi ، وفى « التثليث » De Trinitate ، الى جانب بعض المحاورات الصغيرة التى كتبها على الطريقة الأفلاطونية ... الخ . ولكن ربما كان أعظم مؤلفات أوغسطين جميعا هو كتابه الكبير المعروف باسم « مدينة الله » Le civitate Dei الذى كتبه فى الفترة ما بين سنة ٤١٣ وسنة ٤٢٦ (فى اثنين وعشرين فصلا) ، وترجمته الذاتية المشهورة : « الاعترافات » : Confessionum التى سجلها حوالى سنة ٣٨٩ (فى ثلاثة عشر فصلا) ، وكان عمره عندئذ حوالى ٤٤ عاما ، أعنى بعد أن كان قد تلقى طقس العماد بمدة تبلغ نيفا وأحد عشر عاما .

وقد عين أوغسطين أسقفا لمدينة هبون Hippone سنة ٣٩١ ، وظل يشغل هذا المنصب الديني الكبير قرابة أربعين عاما كان خلالها نموذجا للراعي الصالح ، الى ان وافته المنية عام ٤٣٠ بعد حياة طويلة مليئة بالجهاد والعمل، حافلة بالنشاط والانتاج . وقد قضى القديس أوغسطين فترة كبيرة من حياته مناضلا ومدافعا عن العقيدة المسيحية ضد شتى البدع الغريبة والشيع الفاسدة ، فتصدى للرد على بلاجيوس Pélage (الذي كان ينكر فكرة الخطيئة الأصلية ويجحد القول بالنعمة أو اللطف الالهي) ، كما هاجم أنصار بدعة آريوس (الذين كانوا ينكرون تعاليم الكنيسة حول مساواة الكلمة لله) ، فضلا عن أنه قد عنى بالرد على المانويين وغيرهم من « الهراطقة » . ولكن ربما كانت أهمية أوغسطين الكبرى في تاريخ الفكر انما ترجع أولا وبالذات الى أنه لم يقدم لنا فلسفة ايمانية fidéisme لا تدع للعقل أي دور في صميم الاعتقاد الديني ، بل هو قد قدم لنا محاولة فلسفية أصيلة من أجل تعقل الإيمان المسيحي ، ففتح بذلك السبيل أمام القديس أنسلم St. Anselme الذي سيقول فيما بعد : « ان العقل ينشد الإيمان ، والايمان – بدوره – ينشد العقل » .

٣ – فن الترجمة الذاتية عند أوغسطين

ليس القديس أوغسطين صاحب أول « ترجمة ذاتية autobiographie عرفها التاريخ ، ولكن ربما كان

هو أول من فتح السبيل أمام غيره من الأدباء لكتابة هذا النوع الخاص من الانتاج الأدبي . ولو أننا عدنا ـ مثلا ـ الى الأدب اليوناني ، لوجدنا أنه كان فقيرا في هذا النوع من الأعمال الأدبية ، وان كنا قد نلتقي لدى صولون أو امباذو قليس أو اكسينوفون أو غيرهم ، ببعض روايات تحدثوا فيها عن أنفسهم ، أو قصوا فيها علينا طرفا من وقائع حياتهم . ولكن الظاهر أن اليونانيين لم يكونوا يميلون كثيرا الى هذا النوع من التاريخ الذاتي ، بدليل أن أرسطو نفسه قد نص في كتابه « الأخلاق الى نيقوماخوس » (الفصل الرابع الفقرة الثالثة ٣١) على أن الرجل المثالي أو الرجل الكامل « لا يتحدث عن الآخرين ، ولا يشير الى نفسه من قريب أو بعيد ! » . بل ان فكرة تطور الفرد ـ التي تستلزمها بالضرورة كل ترجمة ذاتية ـ لم تكن تدخل ضمن الأفكار العادية المألوفة لدى الروح اليونانية وهذا هو السبب في أن اليونانيين حينما كانوا يدرسون أي انسان ـ فنانا كان أم أديبا أم فيلسوفا ـ فانهم لم يكونوا ينظرون اليه الا في مرحلة تضجه واكتماله أعني في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخه حين تصل شخصيته الى أوج عظمتها ، وهي اللحظة التي كان النقاد اليونانيون يسمونها باسم « الذروة » أو « القمة » acmè . وأما عند الرومان ـ وهم شعب كان يتمتع بعقلية أقرب الى الواقعية وأميل الى الحقيقة العينية ـ فقد لقي الأدب

« الشخصي » حظا غير قليل من الازدهار ، كما كثر عندهم — بصفة خاصة — كتاب « اليوميات » أو المذكرات الخاصة » . ومن هنا فقد ظهر في الأدب الروماني — منذ بداية القرن الأول للمسيحية — كتاب وشعراء عديدون سجلوا لنا ذكرياتهم الخاصة ، مثلا سيلا Sylla وفارون Varron وشيشرون Cicéron وغيرهم . ولولا تردد الكتاب اللاتينيين أو خوفهم من اقتحام ميادين أدبية جديدة لم يسبقهم اليها اليونان ، لقدموا لنا انتاجا أدبيا بارعا في هذا الميدان الخاص من ميادين التاريخ أو كتابة السير . وحسبنا أن نعود الى مرقس أورليوس Marc-Aurèle (الذي كتب باليونانية ، وان كان قد ولد في روما) لكي نطالع في « تأملاته الشخصية » تلك الصفحات الرائعة التي يصف لنا فيها خبراته الذاتية، وأزمات ضميره الخاص ، وشتى حالات اليأس والقلق والدوران العقلي التي اجتازها في سعيه نحو الكمال . ولكن حيثما كان من دقة الكثير من الملاحظات الذاتية والتحليلات النفسية التي أوردها لنا مرقس أورليوس في مذكراته الخاصة ، فان من المؤكد أننا لا نستطيع أن نقارن أمثال هذه التأملات الجزئية العرضية باعترافات القديس أوغسطين التي تناولت حياته الخاصة وصفا وتحليلا بكل تفاصيلها وفي كل مراحل تطورها . ومن هنا فقد أجمع النقاد على اعتبار « اعترافات القديس أوغسطين » عملا أدبيا

فذا فى تاريخ الفكر الغربى خصوصا وأن هذه «الاعترافات» قد لقيت من الذيوع والانتشار قدر ما لاقاه كتاب « محاكاة المسيح » The Imitation of Christ وكتاب « مسار الحاج » Pilgrim's Progress .

وليس بدعا أن ينتشر فن « الترجمة الذاتية » فى العالم المسيحى : فان الديانة المسيحية كانت تدعو المؤمن الى فحص ضميره ، وتعرف أسراره ، والانطواء على ذاته من أجل الوقوف على حقيقة بواعثه ... الخ . ومن هنا فان كتابة « السيرة الذاتية » لم تعد مجرد استعراض لبعض الجوانب الخارجية او المظاهر السطحية للحياة الشخصية ، بل هى قد أصبحت بمثابة نفاذ الى باطن النفس من أجل استبطان ما فيها من مظاهر صراع نفسى ، وتحليل ما يكمن فى أعماقها من بواعث نفسية دفينة ، وتأريخ حياتها الروحية العميقة بما فيها من سقطات وعثرات وجهاد مستمر ضد الشر ومحاولات شاقة من أجل اصلاح الذات . وقد استطاع القديس أوغسطين - بعبقريته الروحية الفذة - أن يوجه الأنظار الى أهمية هذا النوع الخاص من التحليل الذاتى للشخصية البشرية ، فانتشرت فى العالم المسيحى طريقة « الترجمة الذاتية » ، وبرع كثير من آباء الكنيسة فى تحليل أنفسهم بعمق ودقة وطول باع . ولم يكن أوغسطين هو أول من خاض هذا السبيل ، فقد سبقه الى ذلك فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى كل

من القديس جيروم Saint Jérôme والقديس جريجوار دى نازيانز Grégoire de Nazianze (الذى نظم قصة حياته على صورة ملحمة طويلة تزيد عن الف وتسعمائة وتسعة واربعين بيتا !) . ولكن هاتين المحاولتين ـ وغيرهما كثير ـ لم تبلغا فى تراثهما الفنى مبلغ اعترافات القديس أوغسطين ، فبقى كتاب فيلسوفنا ـ فى تاريخ الأدب المسيحى ـ تحفة نادرة لا نظير لها شكلا وموضوعا .

وهنا قد يحق لنا أن نتساءل : لماذا اهتم القديس أوغسطين ، بعد مرور أكثر من أحد عشر عاما على عماده ـ بالعودة الى حياته الماضية ، من أجل العمل على تأريخها ؟ أو بعبارة موجزة : لماذا حرص الأسقف المسيحى الصالح على نشر مخازيه الماضية وفضائحه القديمة على أهل رعيته ؟ هذا ما يجيبنا عليه تلميذه بوسيديوس Possidius بقوله : « ان القديس أوغسطين قد كتب اعترافاته ، لكى يكشف على الملأ حياته الخاصة قبل التوبة ، حتى لا يغالى أحد فى تقديره أكثر مما يستحق ، أو حتى لا يحكم عليه أحد بحسب أقواله فيظنه أسمى مما هو عليه فى الواقع ونفس الأمر » ! ومعنى هذا أن « الاعترافات » ليست سوى مجرد آية من آيات التواضع المسيحى : فقد وجد أوغسطين نفسه مضطرا الى الاقرار بحقارة ماضيه ، والاعتراف بدناءة حياته السابقة ، فكتب

« الاعترافات » لكى يبين للناس أن القداسة التى أصبح يتمتع بها ان هى الا مجرد ثمرة للنعمة الالهية أو اللطف الالهى la grâce divine . وقد أيد القديس اوغسطين نفسه هذا التأويل الذى قدمه لنا تلميذه ، بدليل أنه بعث بخطاب ـ الى شخص كان قد أرسل اليه طالبا كتاب « الاعترافات » ـ يقول فيه : « هأنذا أرسل اليك نسخة من كتاب الاعترافات الذى تطلبه ، فانظر الى جيدا فى هذا الكتاب ، حتى لاتمتدحنى أكثر مما أنا أهل له ، ويقينى انك عندئذ سوف لا تصدق ما يقوله عنى الآخرون ، بل ما أقوله أنا عن نفسى . واذن فادرسنى جيدا ، وتفرس فى تلك الصورة التى كنت عليها فى الحقيقة ونفس الأمر ، حينما كنت متروكا لنفسى مستسلما لقواى الخاصة وحدها » .

وقد حاول القديس اوغسطين نفسه أن يكشف لنا عن الغرض الذى سجل من أجله اعترافاته فقال فى الكتاب الثانى منها ، موجها الحديث الى الله : « لمن أروى كل هذه الأمور ؟ اننى لا أرويها لك أنت يا الهى ، بل اننى عندما أخاطبك ، انما أخاطب الجنس البشرى الذى أنتمى اليه ، مهما كان من ضآلة عدد الذين قد تقع بين أيديهم هذه الصفحات . وماذا عسى أن تكون جدوى هذا الحديث ؟ اننى أريد من ورائه أن يعرف كل من سيطالع قصتى ـ كما أعرف أنا نفسى ـ عمق الهوة التى تتصاعد منها صرخاتنا نحوك ، وهل هناك ما هو أدنى الى سمعك من

القلب التائب المنسحق ، والحياة التقية السائرة على هدى الايمان ؟ » وهذه العبارة ان دلت على شيء فانما تدل على أن أوغسطين لم يكن يرمي من وراء اعترافه أمام الله سوى أن يوجه الحديث الى أشباهه من بني البشر ، حتى يبين لهم كيف يسلك الانسان طريق الهدى ، وكيف يستطيع الاهتداء الى الصراط المستقيم . ولهذا نراه يعود فيقرر في موضع آخر من اعترافاته أنه لم يكن يقصد من وراء سرده لكل تلك الوقائع أن يطلع الله على شيء كان يجهله ، وانما كان يرمي من وراء ذلك أن يزكي شعلة حبه لله ، وأن يولد في نفوس الآخرين حبا عارما شبيها بحبه هو . (بداية الكتاب التاسع ، والفقرة الثالثة من الكتاب العاشر) واذن فان اعترافات القديس أوغسطين هي بمثابة مخاطبة لله ، أو مناجاة للحب الالهي ولكنها في الوقت نفسه حديث موجه الى البشر ، أو نداء حار أريد به دعوة الناس الى انتهاج سبيل الحق . ولئن كان القديس أوغسطين يعلم حق العلم أن الناس في العادة أحرص على تعرف أسرار حياة الآخرين ، منهم على اصلاح حياتهم الخاصة ، فضلا عن أنهم قلما يميلون الى تصديق ما يرويه الآخرون على مسامعهم من وقائع ، الا أنه مع ذلك لم يتردد لحظة في كتابة اعترافاته حتى يبين لاخوته في الانسانية أنه لا موضع لليأس أو الضعف أو الوهن ، مادامت اليد الالهية على استعداد دائما لانتشال تلك النفوس الساقطة التي تردت في هوة الخطيئة . وليس من العسير على انسان

ذاق مرارة الشـــك ، وكابد من صنوف العذاب الروحي مالا حد له أن يأخذ بيد قريبه المتشكك أو الحائر أو المعذب، لكي يبين له طريق الهدى ، أو لكي يساعده على الاهتداء الى سبيل النصرة الروحية .

بيد أن بعضا من الباحثين – وفي مقدمتهم ارازموس Erasme – قـد ذهبـوا الى القـول بأن أوغســطين لم يكتب اعترافاته الا دفاعا عن نفسه ضد خصومه الذين كانوا يعيرونه بماضيه ، وينتقدون في شخصه ذلك الرجل المانوى الذى لم يكن ينشد الا اللذة ! والظاهر أن خصوم أوغسطين قد ظلوا يلاحقونه باتهاماتهم وتجريحاتهم حتى بعد وصوله الى أسمى المناصب الدينية فليس ما يمنع من أن يكون أوغسطين قد كتب اعترافاته للدفاع عن نفسه ، أو – على الأقل – للكشف عن حقيقة ماضـــيه أمام أولئك الذين كانوا يتهمونه بأنه قد بقى متأثرا ببعض النزعات المانوية . ومما يؤيد هذا الزعم أن أوغسطين قد كتم أسرار حياته الماضية أمدا طويلا من الزمن الى أن أخذ يشعر بأن أقاويل خصومه عن ماضيه قد بدأت تزعزع من فاعليـــة نشاطه الديني فلم يجد بدا من أن يضع الأمر في نصابه ، وبالتالى فقد وجه نفسه مضطرا الى سرد حياته الخاصة بكل تفاصيلها على جمهور المؤمنين من أهل رعيته . ولا شك أن أوغسطين حين شرع يكتب اعترافاته قد كان يعيد العهد بأحداث طفولته وذكريات شبابه أو هو – على الأقل – قد

كان فى حالة نفسية مغايرة تماما لحالته النفسية فى فترة الطفولة والشـــباب ، فليس فى استطاعتنا ـ فيما يرى البعض ـ أن نعد اعترافاته مجرد تسجيلات أمينة لماضيه ، وانما لابد من أن ننظر اليها على أنها « قصـــة خلاص » salut أريد بها تثقيف الآخرين دينيا ، واظهـــارهم على رحمة الله ، ودعوتهم الى التوبة .

وهنا تثار مشكلة « أمانة » القديس أوغسطين فى تصويره لحياته ، ومدى صدق الرواية التى قدمها لنـــا عن نفسه ، فنرى بعض الباحثين يميلون الى التشكيك فى صحة بعض الوقائع ، كما نجد آخرين يقررون أن أوغسطين قد نقح وعدل فى بعض الأحداث حتى يجعل من حيـــاته سيرةمنسجمة متماسكة . وقد اعترف القديس أوغسطين نفسه (فى الكتاب الثالث : الفقرة ٢١) أن بعض التفاصيل الصغيرة من حياته لابد من أن تكون قد غابت عن ذاكرته ، ولكن ليس ما يبرر ـ فى نظرنا ـ الطعن فى نزاهة أوغسطين أو التشكيك فى صحة روايته . ولئن كان هناك اختلاف واضح بين اللهجة التى كتب بها أوغسطين محاوراته فى كاسيكيوم Cassicium غداة عمـــاده ، وتلك النبرة الحماسية التى اصطنعها من بعد عند تسجيله لمشـــاعره الخاصة ابان فترة تردده وشكوكه ، الا أن من المؤكد أن جانبا كبيرا من هذا الاختلاف انما يرجع الى « الأسلوب »

الذى اصطنعه أوغسطين فى كل من « المحاورات » و « الاعترافات » . وقد كتب أوغسطين محاوراته عقب تحوله أو توبته مباشرة ، وكانت نفسه عندئذ قد بلغت مرحلة من السكينة الروحية أو الطمأنينة النفسية ، فلم يكن فى وسعه أن يصف لنا بدقة شتى حالات القلق والتوتر والتمزق الباطنى التى كان يعانيها قبل التوبة . هذا الى أن قواعد « المحاورة » نفسها — على نحو ما تعلمها أوغسطين — كانت تفرض على الكاتب أسلوبا خاصا فى الكتابة ، فلم يكن بد له من أن يشيع فى جو المحاورة روح المؤاخاة والمودة والمرح ، مع اغفال شتى مظاهر القلق أو التوتر أو الكآبة ، مما لا يتناسب مع طبيعة الحياة الاجتماعية . وليس ما يمنعنا مع ذلك من أن نفترض — كما يظهر من بعض عبارات أوغسطين فى تلك المحاورات نفسها — أن وراء تلك الحياة الاجتماعية الهادئة التى كان أوغسطين يحياها بالقرب من آله وأصدقائه ، انما كانت تكمن حياة باطنية عميقة أغلب الظن أنها كانت حافلة بلحظات « المونولوج الداخلى » . ومن هنا فقد كانت لأوغسطين — حتى غداة توبته — حياته الخاصة العامرة بالعبادة الصامتة والدموع المستترة ، وان كان الآخرون قد ظلوا يجهلون كل شىء عن هذا الجانب السرى الخفى من حياته الخاصة .

وأما اذا نظرنا الى اعترافاته التى كتبها بعد توبته

بنحو أحد عشر عاما ، فاننا نلمح فيها بوضوح قلبا مضطرما بالعاطفة والايمان ، ولهجة شعرية تفيض رقة وعذوبة . والوقائع أن اعترافات أوغسطين هى أشـــبه ما تكون بسيمفونية حقيقية تتداخل فيهـــا تارة ، وتتعاقب تارة أخرى ، أنغام الشك والتردد ، والخوف ، والحيرة والقلق ، والمحبـــة ، والتـــوبة .. الخ . وحينما يقرأ المرء تلك العبارات العاطفية الدافئة التى تخفق فيها صيحات الندم ، والحنين ، والشوق ، والتوبة ، فانه لايملك سوى التمايل على أنغام تلك الموسيقى الروحية العذبة التى سجلها لنا قلب كبير انتشى بخمر الحب الالهى ! وحتى لو سلمنا مع بعض الباحثين بأن أوغسطين قد خلع على واقعة « تحوله » conversion أو « توبتـه » طابعـا دراميـا ، فان هذا لن يمنعنا من الاعتراف بما فى « ترجمته الذاتية » من صدق فنى . وليس من شـــك فى أن أوغسطين الذى تعلم فى صباه فن البلاغة ، وتأثـــر فى شبابه بشعر التـــوراة ، لم يكن ليستطيع عند الحديث عن نفسه أن يتجنب تلك الصبغة والوجدانية أو ذلك الطابع الغنائى lyrisme الذى اعتاد اصطناعه فى كل كتاباته . واذن فليس بدعا أن نراه فى بعض الأحيـــان يضفى على بعض الأحداث البسيطة التى مرت به قديما (دون أن تثير لديه أى قلق أو لهفة) طابعا رومانتيكيا حادا ، وكأنما هى وقائع درامية عنيفة اعتز لها كل كيانه . ولكن ، مهما يكن من شىء ،

فان صاحب « الترجمة الذاتية » لابد من أن يجد نفسه مدفوعا ـ ان من حيث يدرى أو من حيث لايدرى ـ نحو التهويل فى وصف أحداث حياته ، والمبالغة فى تصوير « دراما » وجوده . وسنرى فيما بعد الى أى حد نجح القديس أوغسطين فى تجنب العثرات التى طالما تردى فيها كتاب « التراجم الذاتية » فى كل زمان ومكان .

٤ ـ تحليل كتاب « الاعترافات »

ينقسم كتاب « الاعترافات » الى ثلاثة عشر فصلا (١) تناول فيها القديس أوغسطين بالتفصيل ذكريات طفولته وتجارب شبابه ، وشتى أحداث حياته ، محاولا فى الوقت نفسه تحليل مضمون هذه الخبرات النفسية فى ضوء فهمه الروحى لمعنى الحياة الانسانية . ولو شئنا أن نحلل هذه الاعترافات الى عناصرها البسيطة ، لكان فى وسعنا أن نردها الى العناصر الأربعة التالية :

أولا : وقائع محددة كان لها تأثير واضح على حياة أوغسطين وتفكيره ، فكانت مبعثا لتأملات روحية ذات طابع عام .

---

(١) يسمى أوغسطين كل فصل من هذه الفصول باسم « كتاب » فهو الاعترافات الثلاثة عشر كتابا .

ثانيا : أحكام تقديرية لم يصدرها أوغسطين ـ بطبيعة الحال ـ فى نفس الفترة التى حدثت فيها تلك الوقائع ، وانما أصدرها فيما بعد عند تسجيله لاعترافاته أى حوالى عام ٣٩٨ .

ثالثا : ابتهالات وصلوات وتسبيحات تمثل أيضا عنصرا جديدا ، لأنها صادرة عن قلب أوغسطين التائب النادم على خطاياه الماضية المعترف فى الوقت نفسه بنعم الله عليه .

رابعا : مناقشات فلسفية وسيكولوجية لاتتصل أحيانا اتصالا مباشرا بالسرد التاريخى ، ولكنها تنصب فى معظم الأحيان على مضمون خبراته المعاشة أو تجاربه الروحية . وهذه المناقشات تحتل مكانا هاما خصوصا فى الفصول الثلاثة الأخيرة من الاعترافات حيث نجد القديس أوغسطين يثير مشكلات الخلق ، والزمان ، وقدم العالم ، وطبيعة الله ، والملائكة .. الخ . وسنحاول ـ فيما يلى ـ أن نقدم للقارىء خلاصة سريعة لأهم ما ورد فى اعترافات القديس أوغسطين .

١ ـ الكتاب الأول

يبدأ أوغسطين اعترافاته بالحديث عن عظمة الله ، وعمق محبته ، وضآلة الموجود البشرى ، فيقول ان الانسان

قد خلق الله ، » وان النفس البشرية لتظل قلقة حائرة حتى ترتاح في الله » ويتوقف أوغسين طويلا عند مرحلة « طفولته المبكرة » ، لكي يحدثنا عما اعتاد النـــاس تسميته باسم « براءة الطفل في المهد » ، معقبا على هذا الزعم بقوله ان الطفولة نفسها لاتخلو من خطيئة ، مادام الانسان لابد من أن يخطىء في حق الله ، حتى ولو كانت حياته يوما واحدا على الأرض ! وأوغسطين هنا ينسب الى الأطفـــال رذائل كثيرة كالجشع ، والغيرة ، والعناد ، وقلة الصبر ، لكي يؤيد النظرية المسيحية القائلة بالخطيئة الأصلية . ومعنى هذا أن براءة الأطفال المزعومة انما هي — في رأي أوغسطين — مجرد مظهر لضعف تكوينهم ونقص أعضائهم ، دون أن يكون هناك ما يشهد حقا ببراءة نفوسهم أو طهارة ضمائرهم ! ولكن كان أوغسطين يعترف بأنه لايتذكر الكثير عن أيام طفولته الأولى ، الا أننا نراه يحدثنا عن نزوات الطفولة وسقطاتها وشتى مظاهر ضعفها ، وكأن لسان حاله يقول : « ان الطفل ما هو الا مذنب صغير » ! ويمضي أوغسطين في حديثه عن طفولتـــه ، فيروى لنـا بعض الملاحظات السيكولوجية الهامة عن طريقـة تعلم الطفـــل للكلام ، كما يقص علينا بعض الصعوبات التي اصطدم بهـا في بداية حياته الدراسية . وأوغسطين يعترف صراحة بأنه لايتذكر حياة المدرسة بارتياح بالغ ، فقد كان من عادة المعلمين وقتئذ انزال العقوبات الصارمة بالتلاميذ ، فضلا عن أنه هو نفسه لم يكن يدرك فائدة الدروس التي كان

يتلقاها ، هذا علاوة على ميله الشديد الى اللعب واللهو .. وعلى الرغم من نصائح والديه ، وارشادات معلميه ، فقد كان أوغسطين يجد صعوبة كبرى فى قهر نفسه على مواصلة الدراسة ، خصوصا وأنه كان يضيق ذرعا بحياة الضغط والقسر ، فلم يكن من السهل عليه أن يكون تلميذا طيعا سلس القياد . وعلى الرغم من أن أوغسطين كان يبغض اللغة اليونانية بصفة خاصة ، فضلا عن أنه لم يكن يميل الى الأساطير والخرافات ، الا أنه قد برع منذ نعومة أظفاره فى حفظ الأشعار اللاتينية والتعبير عنها بالنثر البليغ . وهو يروى لنا فى الكتاب الأول من اعترافاته كيف طغى الاهتمام بالبلاغة وحسن التعبير عنده على كل اهتمام آخر ، فلم يكن يحفل بالاعتبارات الأخلاقية ، وانما كان مثله الأعلى هو التفوق على الآخرين ، وارضاء ميله الى حب الظهور ، والانتصار على رفاقه (حتى ولو كان ذلك عن طريق الغش !) . ولئن كان أوغسطين يعترف فى خاتمة هذا الفصل الأول بأن الله قد وهبه الكثير من الاستعدادات الجسمية والمواهب العقلية ، الا أنه يقر فى الوقت نفسه بأنه لم يكن يحسن فى طفولته الأولى استخدام تلك القدرات الجسمية والعقلية ، ومن ثم فاننا نراه يقول عن نفسه انه كان « طفلا صغيرا ، ومذنبا كبيرا » !

يتعرض أوغسطين فى هذا الفصل لدراسة مرحلة المراهقة ، فيروى لنا بالتفصيل شتى الأزمات النفسية التى اجتازها ، كما يسهب فى وصف نزوات طيشه وتهوره خلال تلك الفترة العاصفة من فترات حياته . وقد ذكر لنا أوغسطين فى هذا الفصل كيف انساقت نفسه للمفاسد والشهوات ، وكيف استسلم جسده للأهواء والملذات ، على الرغم من كل ما كانت توجهه اليه أمه من نصائح وارشادات . وأوغسطين يقرر هنا أنه كان يرفض كل نصائح أمه ، لمجرد أنها قد صدرت عن امرأة ، دون أن يعلم أن الله نفسه هو الذى كان يكلمه على لسان تلك المرأة . وأما أصدقاء السوء الذين تعرف بهم فى هذا الطور فما كان أكثرهم ، وما كان أشد تأثيرهم فى نفسه ، خصوصا فى فترة العطلة التى قضاها الى جوار والديه . وأوغسطين يروى لنا قصة سرقة جماعية اشترك فيها مع بعض الرفاق : فقد مضوا جميعا بعد منتصف الليل الى حديقة مجاورة كان بها شجرة كمثرى محملة بالثمار وراح الجميع يحركون الشجرة بعنف حتى يتساقط جناها وقد حملوا من تلك الفاكهة الشىء الكثير ، ولكنهم لم ينفعلوا به شيئا ، وانما مضوا فألقوا به الى الخنازير ! .. ولم تكن تلك الثمار جذابة اللون أو حلوة الطعم ، وانما كانت لذة الأكل من الشىء المحرم الممنوع هى التى أضفت على تلك

التمار من عذوبتها ما جعل أولئك الرفاق يجدون فيها طعما مستعذبا حلو المذاق ! ويعقب أوغسطين على هذه القصة بقوله ان حب الشر الذى تسلط على نفوس هؤلاء الصغار هو الذى حدا بهم الى ارتكاب هذه السرقة ، لا لشىء الا لكى يلحقوا الأذى بالآخرين ! وأوغسطين يقرر هنا أنه كما أن المرء قلما يضحك بمفرده ، فان المرء قلما يستعذب الخطيئة بمفرده ! وهو يقول لنا انه لو كان بمفرده ، لما فكر فى ارتكاب تلك السرقة . ولكن « صحبة السوء » هى التى سولت له الاشتراك فى هذه الجريمة ، دون أن تكون له فى ذلك ادنى مصلحة أو أقل فائدة ! « ويكفى — بين رفاق السوء — أن يصيح الواحد منهم فى الآخرين : « هلموا بنا نرتكب هذا الشر » ، لكى يستحى الواحد منهم من حيائه ! » (الكتاب الثانى ، الفقرة ١٧) .

٣ — الكتاب الثالث

يحدثنا أوغسطين فى هذا الفصل عن حياته فى قرطاجنة من سن السابعة عشرة الى سن التاسعة عشرة . وهو يروى لنا فى مستهل حديثه كيف كانت نفسه فى تلك الآونة متعطشة للحب ، لدرجة أنه كان يسعى جاهدا فى سبيل الحصول على موضوع لحبه ، وكأنما هو قد كان يحب الحب نفسه ! ثم يستطرد أوغسطين فيحدثنا عن ولعه بالمسرح ، وحرصه على البحث عن الانفعالات النفسية الجادة ، مما كان يدفعه الى مشاهدة المسرحيات العنيفة

التى كانت تهيج عواطفه وتثير لواعج قلبه . اوغسطين يهتم هنا بتحليل مضمون أمثال هذه الانفعالات الجمالية ، لكى يكشف لنا عن السر فى اقبال الناس على المسرحيات المؤثرة التى تستثير دموعهم وتحرك كوامن مشاعرهم . ثم ينتقل اوغسطين الى الحديث عن حياته الدراسية فى تلك الآونة ، فيبين لنا كيف أنه كان يتقدم فى دراسته ، على الرغم من انصرافه الى الكثير من المغامرات الغرامية . وهو يروى لنا قصة اطلاعه على محاورة شيشرون المسماة باسم « هورطنسيوس » Hortensius ، وهى تلك المحاورة التى كانت تنطوى على دفاع حار عن الفلسفة بوصفها بحثا عن الحكمة . ولكنه يعترف بأنه لم يستطع فى تلك الفترة أن يفيد الكثير من قراءته للكتاب المقدس ، لأنه لم ينجح فى تفهم مضمون الكثير من عبارات التوراة . ثم كان التقاء أوغسطين بالنزعة المانوية ، فقد وجدت فيلسوفنا لدى جماعة المانويين اشباعا لرغبته النظرية فى المعرفة ، وارضاء لنزوعه العملى نحو اللذة . وكان المانويون يفسرون الشر بأنه أصل من أصول الكون ، فضلا عن أنهم كانوا يقولون باستحالة التخلص منه ، فلم يتردد أوغسطين فى التسليم بهذه النظرية التى كان فيها تبرير كاف لمسلكه الشهوانى الفاجر ! يمضى أوغسطين فى شرحه للأسباب التى دفعته الى اعتناق المانوية ، لكى يخلص الى القول بأنه لم يكن يعرف أن الله باطن فى نفسه أكثر مما هو نفسه باطن فى ذاته ، وأن الشر ليس الا سلب محض

أو مجرد عدم للخير ... الخ . وفي نهاية هذا الفصل ، يحدثنا أوغسطين عن والدته سونيكا Monique التي كانت تصلي بحرارة من أجله ، طالبة من الله أن يكتب لابنها « الخلاص » فرآها الأسقف وهي تذرف الدمع مدرارا ، فما كان منه سوى أن ابتدرها بقوله : « اذهبي الى حال سبيلك ـ يا سيدتي ـ وليباركك الله ، فانه لمن المستحيل أن يهلك ابن هذه الدموع .. ! وهكذا كان في تنبؤ ذلك الأسقف ايذان بما سوف يصير اليه أوغسطين من بعد ...

٤ ـ الكتاب الرابع

يروي لنا أوغسطين في هذا الفصل تاريخ حياته ابتداء من سن التاسعة عشرة حتى سن الثامنة والعشرين. وهو يذكر لنا أنه قضى تسعة أعوام بأكملها ظل خلالها متمسكا بالنزعة المانوية ، لدرجة أنه كان يحاول استمالة الآخرين الى هذا المذهب ، واقناعهم بصحة مبادئه الفلسفية. وقد اعترف أوغسطين بأنه قد وجد في علوم التنجيم ـ ابان تلك الفترة ـ دراسات مشوقة ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها ، بعد أن تحقق من كذب كثير من تنبؤات المنجمين ! ومن الأحداث الهامة التي يسردها علينا أوغسطين في هذا الفصل حادثة وفاة صديق له كان قد تعلق به منذ الطفولة فلما فقده أظلمت الدنيا في عينيه ، واتشح كل

ما حوله برداء الموت ! وقد وصف لنا أوغسطين حالته النفسية الأليمة بعد موت صديقه ، فكشف لنا بذلك عن صلة الحب بالموت ، وبين لنا كيف انهارت آماله جميعها بوفاة ذلك الصديق العزيز الذى كان منه بمثابة « نصفه الآخر » ! ثم ينتقل القديس أوغسطين الى الحديث عن مؤلفاته الأولى ابان تلك الفترة المتقدمة من حياته ، فيقول لنا انه الف كتابا عالج فيه مشكلة الجمال ، ألا وهو كتاب « الجميل والملائم » الذى لايعرف هو نفسه فى اى ظروف اختفى تماما من مكتبته . وأوغسطين يتساءل فى هذا الكتاب عن ماهية « الجميل » ، ولكى لايلبث أن يعرفه بقوله « انه الشىء الذى يروقنا بذاته » ، فى حين أن « الملائم » هو « ذلك الشىء الذى لايروقنا الا لتكيفه مع شىء آخر ... » . كذلك يروى لنا أوغسطين فى هذا الفصل أيضا أنه قرأ كتاب ارسطو فى « المقولات العشر » ، ولكنه لم يفد كثيرا من قراءته ، لأنه ظن أنه يستطيع أن يطبق على الله نفسه بعض هذه المقولات ، وكأن الله جوهر مشروط بعظمه أو جماله ! وهكذا الحال بالنسبة الى سائر الكتب الأخرى التى قرأها حول فن القول ، أو فن الجدل ، أو علم الأعداد ، أو علم الهندسة ، أو فن الموسيقى (وأما الى ذلك من مؤلفات فى الفنون الحرة) فانه لم يستطع أن يفيد منها الشىء الكثير ، خصوصا فيما يتعلق بالتصور الصحيح للجوهر الالهى .

٥ ـ الكتاب الخامس

أما في هذا الفصل الجديد ـ الذى تدور معظم أحداثه في السنة التاسعة والعشرين من عمر القديس أوغسطين ـ فاننا نطالع بالتفصيل قصـــة انفصـال أوغسطين عن المانويين ، خصوصا بعد أن استمع الى أحاديث زعيمهم فاوستوس Faustus الذى كان قد قدم الى قرطاجنة للدفاع عن آراء المدرسة المانوية . وقد أسهب أوغسطين في الحديث عن تهافت « المانوية » من وجهة النظر العلمية الصرفة ، كما أعرب عن خيبة أمله لعجز كبير مفكرى المانوية عن الرد على أسئلته ! والواقع أن كل ما كان يمتـــاز به فاوستوس لم يكن يزيد عن ضرب من الفصاحة أو البراعة اللفظية ، في حين أن أوغسطين كان ينتظر منه أن يفسر له تلك الأساطير المانوية العديدة عن الســـماء والكواكب والشمس والقمر .. الخ . وهكذا انكشف لأوغسطين ـ فيما يقول ـ جهل هؤلاء المانويين ، يجد بدا من اطـراح عقيدتهم ، خصوصا بعد سفره الى روما حيث وقع تحت تأثير بعض النزعات الارتيابية التى كان ينادى بها بعض الأكاديميين المحدثين . وانتقـــل أوغسطين بعد ذلك الى ميلانو ، فسمع هنـــاك عن أسقف عظيم يدعى القديس أمبروسيوس ، ودفعه حب الاســـتطلاع الى التردد على الكنيسة للاستماع الى عظات هذا الأسقف . وأوغسطين يعترف بأنه لم يهتم بالانصـــات الى أحاديث القـديس

أمبروسيوس الا بسبب ما كان قد سمعه عنه من فصاحة وقوة بيان . ولكنه يقرر فى الوقت نفسه أنه لم يلبث أن شرع يتمعن فى معانى أقاويله ، ويتأثر بمضمون أحاديثه ، خصوصا وأن هذا القديس العظيم لم يكن يفسر العهد القديم تفسيرا حرفيا ، وانما كان يفسره تفسيرا روحيا . وهكذا بدأ أوغسطين يفكر جديا فى الانضمام الى الكنيسة المسيحية ، وشرع يعد نفسه للدخول فى زمرة المؤمنين .

٦ ـ الكتاب السادس

يروى لنا القديس أوغسطين فى هذا الفصل كيف لحقت به أمه فى مدينة ميلانو ، وكيف كان سرورها عظيما حينما علمت أنه كان قد تخلى عن آرائه المانوية ، وأنه كان قد شرع يتأثر بعظات القديس أمبروسيوس وتعاليمه الروحية . وهو يذكر لنا أيضا أن والدته كانت شديدة الاعجاب بهذا الأب الروحى الممتاز ، لدرجة أنها لم تتردد فى التخلى عن الكثير من عاداتها الدينية القديمة فى سبيل الخضوع لتعاليم أمبروسيوس . ولئن كان أوغسطين قد بقى بادىء ذى بدء مترددا أو خائفا ، لايكاد يقوى على مواجهة هذا القديس أو التحدث اليه على انفراد ، الا أنه كان يواصل الاستماع الى تعاليمه وعظاته العامة ، فاستطاع أن يدرك كيف أن قصة الخلق هى قصة رمزية لاتؤخذ بظاهرها ، لأن « الحرف يقتل ، وأما الروح فتحيى »

(على حد تعبير القديس بولس) . ويستطرد أوغسطين فيحدثنا عن أحلام السعادة التى كانت تراوده فى ذلك الحين ، ويصف لنا الآمال الكبرى التى كان يسعى نحو تحقيقها من وراء طموحه . ولكنه يروى لنا كيف استطاع أن يدرك عبث كل هذه الأحلام وبطلان كل تلك الآمال ، حينما فطن أخيرا الى انها كانت بعيدة كل البعد عن أن تكفل له « النجاة » ، أو أن تحقق له « الخلاص » . وكان لأوغسطين فى ذلك الوقت صديقان حميمان هما اليبيوس اليبيوس Alypius ونبريديوس Nebridius فكان يقضى معهما الساعات الطوال ، يتناقش معهما فى مسائل السعادة ، والخلاص ، وغاية المصير ، ومعنى الوجود البشرى .. الخ . واوغسطين يهتم فى هذا الفصل بتحليل شخصية صديقه اليبيوس ، فيحدثنا عن ولعه بالمسرح ، وحبه لمشاهدة المصارعة ، كما يروى لنا قصة اتهام زائف كاد صديقه يقع ضحية لها ، لولا اكتشاف المجرم الحقيقى بطريق الصدفة البحتة . ولكن المهم أن أوغسطين قد وجد فى شخص اليبيوس الصديق المخلص النزيه الذى كان يتمسك بالعدالة ، ولا يقبل فى عمله أى تراجع عما يعتقد أنه الحق ، لدرجة أنه رفض الكثير من فرص الاثراء فى سبيل احترام القانون . وأما نبريديوس ، فقد ترك منزله ووالديه وضيعته ، لكى يلحق بصديقه أوغسطين فى ميلانو ، وكان كل ما يقلق باله هو الاشتراك مع صديقه فى طلب الحكمة والبحث عن الحقيقة . ولم يلبث الأصدقاء

الثلاثة أن شرعوا يفكرون فى « السعادة » ، فكان أوغسطين أسرعهم الى ربط السعادة بالحب ، لانه كان يظن أن أحدا لايستطيع الاستغناء عن معاشرة النساء . وكان البيبوس ينصح صديقه أوغسطين بعدم الزواج ، ولكن أوغسطين استطاع أن يقنع صديقه بأهمية تجربة « الارتباط العائلى » ، فكان أن أقدم صديقه على الزواج لمجرد رغبته فى تجربة « المعاشرة الزوجية » ! .. وأما أوغسطين نفسه فقد كانت أمه تريد أن تبحث له عن زوجة مناسبة ، فاختارت له فتاة صغيرة كان عليه أن ينتظرها عامين كاملين ، وكانت هى كانت تريد أن تصون عفته بالتفكير فى الزواج ! ولكن شهوة أوغسطين العارمة لم تكن لتقوى على الانتظار ، فلم يلبث أوغسطين أن اتخذ له عشيقة بادلها حبا بحب ، وبذلك استكانت نفسه لعبودية اللذة ، وصح ما قاله هو نفسه عن نفسه من أنه لم يكن فى تلك الآونة سوى مجرد تلميذ مخلص لأبيقور !

٧ ـ الكتاب السابع

يتناول القديس أوغسطين فى هذا الفصل شرح الشكوك الميتافيزيقية التى كانت لاتزال تراوده حول حقيقة الجوهر الالهى وطبيعة الشر ، ومدى المسئولية البشرية .. الخ . وهو يروى لنا فى هذا الفصل كيف تخلى نهائيا عن نظرته المادية الى الجوهر الالهى ، وكيف

شرع يفهم خيرية الله ، وصلة الشر بالحرية الانسانية او السقطة الأولى .. الخ . كذلك يسترد علينا أوغسطين بعض الخبرات الخاصة التي ادت به الى رفض كل تنبؤات المنجمين وادعاءات القائلين بتأثير الأفلاك على مصير الانسان! ولكن المشكلة الكبرى التي ظلت تقض مضجع أوغسطين - طوال هذه الفترة - انما كانت هي مشكلة « أصل الشر » فقد كان فكره مشغولا بالتوفيق بين خيرية الله وقدرته المطلقة . ويستطرد أوغسطين فيحدثنا عن بعض كتب الأفلاطونيين المحدثين التي وقعت بين يديه ، ويقول لنا ان وجد في هذه الكتب الكثير من الحقائق الكبرى : لأنه قرأ فيها « أنه في البدء كان « الكلمة » Logos

وأن الكلمة كان في الله ، وأن الكلمة كان هو الله ، وأن كل شيء به قد كان ، وأنه بغيره لم يكن شيء مما كان .. » ولقد قرأ أوغسطين أيضا في هذه الكتب « أن الكلمة أو اللوغوس لم يولد من لحم أو دم أو مشيئة بشر ، بل من الله . وأما أن الكلمة قد صار جسدا ، وحل بيننا ، فهذا ما لم يجده في هذه الكتب مطلقا .. » . وأوغسطين يعترف بأنه قد وجد عند الأفلاطونيين المحدثين حقيقة شبيهة بما ورد في انجيل يوحنا عن أزلية « الكلمة » ، ولكنه لم يجد عندهم السبيل العملي الى ادراك تلك الحقيقة أو السير على هديها في حياته الأخلاقية : وهو - بلا شك - قد اخذ أيضا عن الأفلاطونيين المحدثين قولهم بأن الشر عدم أو سلب محض : ولكنه لم يستطيع أن يقنع ببعض

الفلسفات النظرية أو الآراء الميتافيزيقية عن الحقيقة الالهية ، أو اللوغوس ، أو أصل الشر ، فانه لم يكن ينشد المعرفة النظرية الصرفة ، بل كان ينشد أيضا سبيلا عمليا يقتاده الى « النجاة » . ومن هنا فاننا نراه يعترف صراحة بأن كل هذه المكاسب العقلية لم تستطع أن تشبع نهمه الروحي ، مادام الخير الأسمى الذي يمكن أن يكفل لنا السعادة انما يتوقف أولا وأخيرا على توجيه الارادة توجيها صحيحا نحو المحبة الالهية . وأوغسطين يلاحظ ـ في هذا الصدد ـ أن كتب الفلاسفة لاتخلو من كبرياء عقلية أو صلف عقلي ، في حين أننا نلمس في كتابات رجل مثل القديس بولس تواضعا روحيا لانظير له عند غيره من كبار حكماء الانسانية . وربما كان هذا هو السبب في انصراف القديس أوغسطين الى مطالعة رسائل القديس بولس بلهفة وشغف زائدين ، خصوصا وأن هذه الرسائل تفيض بالحديث عن ضعف الانسان ، وعجز « الانسان الروحي » الباطن فينا عن مقاومة « الانسان الجسدي » الخاضع لشهوة أعضائنا الجسمية .. الخ . وأوغسطين يهتف مع القديس بولس (في ختام هذا الفصل) قائلا : « ويحي أنا الانسان الشقي ! من ينقذني من جسدي هذا : جسد الموت : ؟ » . وهكذا نراه يعلق خلاصه على اللطف الالهي أو النعمة الالهية ، واثقا من أن ارادة الانسان الضعيفة عيهات أن تكفي وحدها لانقاذ من براثن الخطيئة ..

٨ ـ الكتاب الثامن

يروى لنا أوغسطين فى هذا الفصل أهم الأحداث التى وقعت له فى العام الثانى والثلاثين من عمره ، فيبين لنا كيف أن اللطف الالهى قد شاء له أن يسمع عن توبة الكثيرين ممن ظلوا أمدا طويلا سادرين فى غيهم ، وكان الله قد أراد أن يضع بين يدى « عبده أوغسطين » أمثلة صالحة يستطيع أن يقتدى بها . ولعل من هذا القبيل مثلا ما سمعه أوغسطين من الأب سمبليقيانوس Simplianus عن توبة أحد مشاهير الخطباء الرومان ، الا وهو فكتوريانوس Victorianus الذى طالما علم أبناء النبلاء الرومان تعاليم الوثنية الفاشمة ، ولكنه انتهى فى خاتمة المطاف الى اعتناق المسيحية ، ولم يتردد فى اشهار تحوله الدينى على مرأى من سائر معارفه من أهل روما ! وقد كان لهذه القصة أثر كبير على نفسية أوغسطين ، فكان يتحرق شوقا لتكريس حياته كلها لله ، ولكنه مع ذلك ظل موثقا الى عاداته السيئة القديمة ، فلم يكن ليقوى على تحرير ارادته من عبودية الخطيئة ! وأوغسطين يروى لنا أيضا أنه سمع من أحد أصدقائه الافريقيين الذين قدموا لزيارته فى ميلانو (كان يدعى بونطيقيانوس Ponticianus روايات كثيرة مؤثرة عن قداسة الراهب المصرى القديس أنطونيوس ، فكان لهذه الروايات أثر بالغ على سلوك أوغسطين (وسلوك صديقه الحميم البيوس) . وهكذا تهيأت نفس أوغسطين لقبول

التوبة ، ولم يبق عليه سوى أن يخمد أصوات الشر في قلبه ، لكي يقهر ارادته على الامتثال للنداء الالهي . وقد أسهب أوغسطين في وصف حالة الصراع النفسي التي كان يعانيها في تلك الفترة ، فقدم لنا تحليلات رائعة لحالة « ضعف الارادة » ، ووصف لنا ببراعة هائلة كيف أن الجسم يمتثل للنفس حينما تأمره ، وأما النفس فانها كثيرا ما تعصى أوامر ارادتها الخاصة ، وكأنما هي عاجزة عن اطاعة نفسها ! ... وأخيرا حانت لحظة التوبة ، فسمع أوغسطين صوت طفل يغني قائلا : « خذ واقرأ » ، واعتبر هذا الصوت بمثابة نداء الهي يدعوه الى قراءة الكتاب المقدس ... ولم يلبث أوغسطين ـ كما سبق لنا أن بينا عند الحديث عن حياته ـ أن فتح الكتاب المقدس على صفحات القديس بولس التي يدعو فيها المؤمنين الى الانصراف عن حياة الشهوة والخلاعة وملذات الجسد ، من أجل العمل على الاستغراق في حياة القداسة والبر والتقوى . وجرى أوغسطين ـ بصحبة صديقه البيبوس ـ لكي يعلن النبأ على والدته الحزينة ، فكانت فرحة مونيكا باهتداء ابنها فرحة مزدوجة : لأنها شعرت بأن ولدها الضال قد عاد أخيرا الى أحضان المحبة الالهية ، كما أنها رأت حلمها يتحقق فأدركت أن الله قد قبل دموعها واستجاب صلاتها !

٩ – الكتاب التاسع

تدور أحداث هذا الفصل غداة توبة أوغسطين ، وكان قد بلغ من العمر حوالى ثلاث وثلاثين سنة ، فيرى أوغسطين يقلع نهائيا عن تعليم مهنة الخطابة ، متعللا ببعض الأسباب الصحية ، ثم نراه يعتكف قليلا فى الريف لكى يستعد لتقبل نعمة « العماد » . ولم يلبث أوغسطين أن عاد الى ميلانو ، لكى يتلقى طقس العمـــاد على يـد القديس أمبروسيوس ، وبذلك اكتملت توبته ، وصار عضوا فى الكنيسة المسيحية (هو وصـديقه أليبوس ، وابنه غير الشرعى أديوداتوس Adeoéatus وأوغسطين يروى لنا أحاديث روحية عميقة دارت بينه وبين أمه مونيكا ، فيذكر لنا كيف تبادلا الحديث عن حياة الجسد وحياة الروح ، وحنين النفس البشرية الى الاستغراق فى الله ، ولذة الانطلاق الى السماء ، وعذوبة الحياة الأبدية بعد الموت ... الخ . وهو يقول لنا ان أمه كانت تحس احساسا غامضا بقرب نهايتها ، فكانت تجد لذة كبرى فى أن تتحدث معه عن تلك الأمجاد السماوية المرتقبة ، التى لم ترها عين ، ولم تسمع بها أذن ، ولم تخطر يوما على قلب بشر » . ولم تكد تمضى خمسـة أيام على هذه الأحاديث ، حتى فاجأ المرض والدة القديس ، فلازمت الفراش بضعة أيام فى شبه غيبوبة ، الى أن وافتها المنية فى السادسة والخمسين من عمرها . وعلى الرغم من أن حزن أوغسطين على وفاة

والدته قد فاق كل حد ، الا انه كان يشعر بأن وفاة هذه السيدة البارة لم يكن سوى مجرد انتقال مؤقت . وقد خفف من وقع الصدمة على نفس أوغسطين أن هذه الوفاة لم تحدث الا بعد أن اطمأنت نفس مونيكا على خلاص ابنها . وهكذا رقدت تلك القديسة الطاهرة مطمئنة مستريحة البال ، وحق لأوغسطين أن يطلب لنفسها الرحمة ، مبتهلا الى الله أن يسكنها جنات الخلد .

١٠ ـ الكتاب العاشر

أما وقد فرغ أوغسطين ـ في الفصول السابقة ـ من الحديث عن حياته قبل العماد ، فاننا سنراه في هذا الفصل يحدثنا عن معرفته لله ، ومحبته له ، ورغبته في أن يشاركه الآخرون هذا الحب وتلك المعرفة . وأوغسطين يقرر هنا انه لكي يعرف الانسان نفسه ، فلا بد له من علم الهي يكشف له عن أغوار قلبه . ومن هنا فان أوغسطين يمضي في البحث عن الله ، لكي يبين لنا أن الله لا يختلط بالطبيعة ، وأنه لا سبيل لنا الى معرفته اللهم الا اذا تجاوزنا الحياة العضوية وعلونا على الطبيعة المحسوسة . ثم يتساءل أوغسطين عن الملكة التي نستطيع عن طريقها أن نعرف الله ، فنراه يتوقف طويلا عند ملكة « الذاكرة » التي وجد فيها خير معبر عن الثراء الباطن في صميم حياتنا الشعورية . وليس في وسعنا ـ بطبيعة الحال ـ أن

نسهب في شرح أنواع الذاكرة التي يتحدث عنها أوغسطين (عن حسية ، وعقلية ، وعاطفية وغير ذلك) ، وانما حسبنا أن نقول ان أوغسطين هنا يقدم لنا تحليلات سيكولوجية ممتازة في موضوع « الذاكرة والنسيان » مما قد لا نجد له نظيرا من بعد اللهم الا عند برجسون . والسر في اهتمام أوغسطين بالذاكرة انه يريد أن يبين لنا أننا ما كنا لنبحث عن الله ، لو لم نكن قد وجدناه من قبل ! فالله موجود في باطن ذاكرتنا ، وهو موجود على صورة فكرة رئيسية هامة من أفكار الانسان ، ألا وهي « فكرة السعادة » ، أو « النزوع نحو السعادة » . والواقع أننا جميعا نتمنى السعادة ، ونعمل جاهدين في سبيل الوصول اليها . ولكن هيهات لنا أن نظفر « بالسعادة » اللهم الا في الله ، فما السعادة الا تلك الغبطة التي نستشعرها في نفوسنا حين نصل الى « الحق » ، وما « الحق » الا الله نفسه ! واذن فان القديس أوغسطين حينما يقرر أن الله كامن في « الذاكرة » انما يعني أن الله هو ذلك « الحق » أو تلك « الحقيقة » التي هيهات للفكر المستبصر أن ينساها أو يتناساها . ولكن لا موضع للتساؤل عن ذلك الجزء المعين الذي يشغله الله في داخل الذاكرة ، فان مثل هذا التساؤل قد يوحي بأن في الذاكرة أجزاء مستقلة منفصلة بعضها عن البعض الآخر ! ومهما وقع في ظن الانسان أن هناك مسافة تفصله عن الله ، فان الحقيقة الالهة لابد من أن تظل حقيقة كلية شاملة تطوي في ثناياها كل شيء . وان الله

ليجيب على كل استفهام يتصاعد اليه من قلب البشر ، ولكن الذين يستمعون الى الجواب الالهى قلة نادرة ! وما أتعس بنى البشر . فانهم أحرص على أن يسمعوا من الله ما يريدون ، منهم أن يريدوا ما يسمعون من الله ما يريدون ، منهم على أن يريدوا ما يسمعون منه ! وهذا هو السبب فى أنهم قلما يعرفون كيف يستمعون الى الصوت الالهى ، أو كيف يفهمون المقاصد الالهية السامية . ثم يستطرد القديس أوغسطين فيصف لنا حالته النفسية فى الفترة التى كان يسجل فيها اعترافاته ، ويقرر أن الحياة — فى رأيه — لا تخرج عن كونها سلسلة مستمرة من التجارب أو البلايا ، وأنه لولا عناية الله ولطفه بنا لهلك كل من على وجه الأرض ! ويمضى أوغسطين فى وصف الشهوات المختلفة التى طالما وقع البشر ضحية لها ، فيحدثنا عن شهوة الجسد ، وشهوة الطعام والشراب ، وشهوة الشم ، وشهوة السمع وشهوة العيون ، وتعظم المعيشة ... الخ ومن طريف ما يريد على لسان أوغسطين — فى هذا الصدد — ارجاعه جميع الشهوات الى « شهوة العين » نظرا لما للبصر من أهمية بالغة فى حياة الانسان . ويختم أوغسطين هذا الفصل بالحديث عن تفاهة « الاكتفاء الذاتى » ، وبطلان كل « رضاء عن النفس » ، لكى يؤكد ضرورة التمسك بيسوع المسيح : « الوسيط الحقيقى بيننا وبين الله .

يعد هذا الفصل من أهم فصول « الاعترافات » : فان المؤلف يتعرض فيه لدراسة مشكلة الزمان ، وخلق العالم ، وعلاقة الزمان بالنفس الانسانية .. الخ وأوغسطين يبدأ بعبارة التوراة التى تقول انه « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ، فيقول ان التوراة تجعل للمخلوقات « بداية » . ولما كان الزمان فى جوهره تغيرا وصيرورة ، فان الزمان نفسه لابد أيضا من أن يكون مخلوقا . ومعنى هذا أن الزمان لا يمكن أن يكون ازليا ما دام مثله كمثل باقى المخلوقات الأخرى من حيث كونه مبتدئا . وأما اذا سائلنا المانويون قائلين : « ماذا كان الله يفعل قبل خلقه للسموات والأرض ؟ » فاننا لن نستطيع أن نجيبهم بقولنا : « انه لم يكن يصنع شيئا » ، فان هذا سيستتبعه بالضرورة أن نتساءل عن السبب الذى من أجله لم يستمر الله على تلك الحالة فى الزمان التالى : اذ لو افترضنا أن مرجحا قد استجد عليه ، لتعين ألا يكون الله أزليا . ولكن الواقع أن ارادة الله قديمة كائنة قبل كل حدوث : اذ لو طرأ فى الجوهر الالهى شىء لم يكن فيه لوجب أن نسلب عنه صفة الأزلية واذن فان ارادة الله قديمة ، ومفعولها هو المتعلق بالزمان وليس بالنسبة الى الله « قبل » و « بعد » ، نظرا لأن الله هو الذى يحدد الماضى والمستقبل ، دون أن يخرج هو نفسه عن ثبات أزليته وأوغسطين يقرر أن الله قد خلق

كل شيء ، وأنه لا موضع للحديث عما كان يفعله الله « قبل » الخلق لأنه ليس ثمة « شيء » قبل الخليقة . ولو جاز أن يكون الله قد صنع « شيئا » قبل قيامه بعملية الخلق ، لكن هذا الشيء حادثا مخلوقا ـ كغيره من الأشياء الأخرى ـ ولكانت هناك « خليقة » قبل الخلق ! ولا موضع للتعجب من أن يكون الله قد ظل « عاطلا » من كل عمل خلال أزمنة عديدة سبقت حادثة الخلق ، لأنه لا يجوز الحديث عن الأجيال ! وبعبارة أخرى ، لا موضع للحديث عن « زمان » أزمنة انقضت ، قبل أن يكون الله قد خلق الزمان وأوجد قبل أن يكون الله قد خلق الزمان ! وهكذا نرى أن أوغسطين يقرر أن الله لم يخلق العالم فحسب بل هو قد خلق الزمان أيضا . ولو قلنا بأنه ليس ثمة « زمان » قبل الخلق ، فلن يكون ثمة موضع للتساؤل عما كان الله يفعله « حينئذ » لأنه حيث لازمان ، فلا مجال للتحدث عن أى « حين » !

ثم يمضى أوغسطين فى حديثه عن « الزمان » فيحاول أن يبين لنا أن « الماضى » زمان قد انقضى فلم يعد له وجود ، و « المستقبل » زمان لم يحن بعد فلا وجود له الآن ، و « الحاضر » نقطة تلاقى الماضى والمستقبل فهو زمان لا وجود له ! ولكننا مع ذلك نقيس الزمان ونصفه بالطول أو القصر ، فما هو هذا الذى نقيسه ؟ ... الواقع أننا نجد فى النفس مقياس الزمان : لأن ما نقيسه بالنسبة الى الماضى انما هو « حاضر هذا الماضى » فى النفس ،

وما نقيسه بالنسبة الى المستقبل انما هو « حاضر هذا المستقبل » في النفس ، وما نقيسه بالنسبة الى الحاضر انما هو « حاضر هذا الحاضر » في النفس . و « الماضى » حاضر في النفس على صورة « ذاكرة » ، في حين أن « المستقبل » حاضر فيها على صورة « توقع » ، و « الحاضر » حاضر فيها على صورة « انتباه » أو « عيان مباشر » . وهكذا نرى أن أوغسطين يجعل وجود الزمان واستمراره من عمل النفس التى تتذكر وتسترجع ، أو تنتظر وتتوقع ، أو تنتبه وتستجمع .

١٢ ـ الكتاب الثانى عشر

يواصل أوغسطين فى هذا الفصل الحديث عن مشكلة الخلق ، فنراه يتوقف طويلا عند الفصول الأولى من سفر التكوين لكى يفسرها تفسيراً رمزياً ... حقا لقد ورد في سفر التكوين أن الله قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام متوالية ، ولكننا لن نستطيع أن نأخذ هذه النصوص على ظاهرها ، وكأننا بصدد « أيام » حقيقية قد جاءت متعاقبة ، أو كأن الفعل الالهي قد اقتضى زمانا معينا ، بل ينبغى أن نقرر أن عملية « الخلق » قد تمت فى لحظة واحدة ، دون أن يقتضى ذلك أى تعاقب زمنى . وما جاءت رواية التوراة على هذا النحو الا لكى تناسب ضعف عقولنا وقصور تخيلنا ، بدليل قول الكتاب : « ان الله قد استراح فى اليوم السابع » (أى كف عن الخلق) ، وهو تعبير

لا يلائم الا الصانع البشرى الذى يتعب بعد قيامه بعمل شاق أو جهد مضن ! وليس مثل الله كمثل الصانع البشرى الذى يستعين بجسم ما فى صناعة جسم آخر ، وانما الله هو خالق كل شىء ، حتى تلك المادة التى استعملها فى خلقه للسماء والأرض . « والا ، فانى لشىء لم تخلقه أنت أن يوجد ، ما دام شىء لا يمكن أن يوجد الا اذا كنت أنت نفسك موجودا ؟ ولكنك قلت : لتكن الأشياء ! فكانت الأشياء ، وبكلمتك أنت خلقتها ... » . وأوغسطين يسهب فى شرح فكرة « الخلق من العدم » ، لكى يبين لنا أن المادة التى تحدث عنها سفر التكوين هى نفسها من خلق الله . وهو يفسر كلمة « الأرض » بأنها المادة العارية من الصورة تماما ، بينما نراه يفسر « السماء » بأنها مادة روحية مكتملة الصورة (وهى المادة التى صنعت منها الملائكة) ! ولكن الله لم يخلق المادة أولا ، ثم عاد فاكسبها صورا متعددة من بعد ، بل ينبغى أن نقرر أن خلق المادة لم يسبق خلق الصور فى ترتيب الزمان ، بل فى ترتيب العلية فقط ، ومعنى هذا أن الله قد خلق المادة والصور فى وقت واحد ، أو هو قد خلق المادة مشبعة بطائفة من الصور . وأوغسطين ينسب الى « المادة » أدنى ضرب من ضروب الحياة ، فيقول انها أبعد الموجودات عن الجوهر الالهى . حقا ان المادة « شىء » ، ولكنها أقرب الأشياء الى « العدم » أو « اللاوجود » . وأما كلمة « البدء » التى وردت فى سفر التكوين فهى لا تعنى بداية الزمان ، بل مبدأ جميع الأشياء ،

الا وهو اللوغوس أو « الكلمة » ... وليس فى وسعنا ـ بطبيعة الحال ـ ان نأتى فى هذه العجالة القصيرة على كل آراء أوغسطين فى تفسير عبارات التوراة ، وانما حسبنا أن نقول ان أوغسطين يعترف هنا بامكان تأويل عبارات موسى الواردة فى سفر التكوين على أنحاء متعددة ، ولكنه يقرر أن من المستحيل أخذ تلك العبارات بحرفيتها ، وكأن الله هو مجرد صانع بشرى يستخدم ما بين يديه من مواد فى صناعة جسمين كبيرين : أحدهما جسم علوى هو السماء ، والآخر جسم سفلى هو الأرض ! ...

١٣ ـ الكتاب الثالث عشر

يظهر فى هذا الفصل تأثر أوغسطين بفلسفة أفلاطون فاننا نراه يقرر معه « لما كان الله خيرا وبريئا من كل حسد ، فقد أراد أن تكون جميع الأشياء شبيهة به على قدر الامكان » وأوغسطين يحمل ما ورد فى سفر التكوين على هذا المعنى فيقول « ان الله قد نظر الى كل ما خلقه ، فرأى أن ذلك حسن . والله قد خلق الأشياء كلها بكلمته ، وهو لم يخلقها الا لأنها حسنة » . وما دام الشر سلبيا أو عدما محضا ، فان كل ما فى الوجود مظهر من مظاهر خيرية الله ، دون أن يكون ثمة موضع للقول بوجود نقص أو تصدع أو انحلال فى أى عمل من أعمال الخلق الالهى . وأوغسطين يتوقف عند الآيات الأولى من سفر التكوين لكى يثبت لنا

أنها تنطوى على فكرة « التثليث » اذ ترد فيها كلمة « الله » وكلمة « البدء » ، وكلمة « الروح » وهو يحاول أن يقرب هذه الفكرة الى اذهان قرائه فيحدثهم عن « وحدة » النفس البشرية التى تقوم على « الوجود » و « المعرفة » و « الارادة » .. « انني أوجد ، وأعرف وأريد ، أو أنا موجود من شأنه أنه يعرف ويريد . وأنا أعرف أنني أوجد وأريد . وأنا أريد أن أوجد وأعرف .. وهذه الظاهر الثلاثة تكون حياة واحدة غير منقسمة ، اذ نحن هنا بصدد وجود واحد ، وعقل واحد ، وماهية واحدة ، أو نحن بصدد تمايز لا ينطوى مع ذلك على اى انفصال » (ك ١٣ : ف ١١) .

ثم يعرج أوغسطين على قصة الخلق فيفسرها تفسيرا صوفيا رمزيا ، وكأنما هى تنطوى على مجموعة من « المعادلات التشبيهية » التى لابد من فك رموزها . فالفلك (مثلا) هو الكتاب المقدس ، والمياه الموجودة فوق سطح الفلك هى الملائكة ، والمياه المرة هى العالم ، والأرض اليابسة هى الخير ، والزواحف ذات النفوس الحية هى الأسرار المقدسة ، والطيور التى تطير على سطح الأرض هى رسل الكلمة الالهية ، والنفس الحية التى توالدها الأرض هى النفس المسيحية الحقة .. الخ . وأوغسطين يشرح لنا بالتفصيل كيف يتسنى لنا أن نرقى من هذه « الأمارات الحسية » أو « الرموز المادية » الى دلالاتها المعنوية أو معانيها الروحية ، وهو يدافع عن طريقته الخاصة فى فض هذه الشفرات أو الرموز فيقول ان الكثير منها قد يبدو غامضا

أو متناقضا لو فهم على وجهه الظاهرى . وقد يكون من الطريف أن يرجع القارىء الى هذا الفصل الأخير من فصول « الاعترافات » ، لكى يتعقب هذا التفسير الرمزى لقصة الخلق على نحو ما تصورها أوغسطين . ولكن المهم فى نظرنا هو ما نجده لدى أوغسطين من رد فعل روحى واضح ضد شتى النزعات المانوية المادية فى تفسير عملية الخلق . فالمانويون مثلا لم يكونوا ينسبون الى الله خلق سائر الموجودات ، كما أنهم كانوا يقولون بوجود نقص أو « شر » فى الخليقة ، فضلا عن أنهم كانوا ينكرون مبدأ « الانسجام الكلى » . وأما عند أوغسطين فان الخليقة (فى جزئياتها ومجموعها) حسنة خصوصا وقد ورد فى التوراة أن الله قد استحسن ما صنعت يداه سبع مرات . ولكن هذا الاستحسان لم يتم فى الزمان (كما قد يتبادر الى أذهاننا لأول وهلة) وانما تكلم الله بصيغة الزمان ، حتى نفهم مقصده الالهى وفقا لطبيعتنا الزمانية القاصرة . وهذا هو السبب فى قول الكتاب عن الله « انه استراح فى اليوم السابع » ، فى حين أن الله هو الفاعلية الأزلية الأبدية التى لا تعرف التعب أو الاعياء ! ولكن الله أيضا هو الراحة الأزلية والثبات المطلق ، فلابد للنفس البشرية القلقة المعذبة من أن تحقق وجودها على الأرض لكى ترتاح أخيرا فى الله ! . . وهكذا نجد أن الكلمة النهائية فى اعترافات القديس أوغسطين انما هى للراحة الأبدية فى أحضان الله

٥ ـ الأثر الخالد لكتاب « الاعترافات »
في تراث الانسانية

اذا كان النقاد الأدبيون قد أجمعوا على اعتبار « اعترافات » القديس أوغسطين تحفة نادرة في تاريخ « التراجم الذاتية » فما ذلك لما تضمنته من تحليلات سيكولوجية دقيقة فحسب ، وانما لأنها قد انطوت أيضا على « عمل فني » متكامل تفضي بدايته الى نهايته بطريقة فنية متوافقة . وقد سبق لنا أن لاحظنا ما اتسمت به اعترافات أوغسطين من صراحة ، واخلاص ، ونزاهة ، ودقة تحليل . ولكننا لو قارنا هذه الاعترافات (مثلا) باعترافات جان جاك روسو ، لوجدنا أن أوغسطين لم يبلغ في اعترافاته حد الوقاحة الفجة كما فعل الكاتب الفرنسي الذي لم يجد أدنى حرج في أن يروي على قارئه أفضح المسائل الجنسية ! حقا ان أوغسطين لم يخف عن الناس الكثير من مخازيه الأخلاقية ومثالبه الشخصية ، ولكنه مع ذلك قد عرض كل هذه الفضائح بأسلوب التائب النادم الذي يتحسر على عمق الهاوية التي انحدر اليها ! واذا كنا نجد في كثير من « التراجم الذاتية » دفاعا عن النفس ، وافتياتا على الآخرين ، فاننا لا نكاد نلمح لدى القديس أوغسطين أي تجن على أية شخصية من الشخصيات التي ورد ذكرها في اعترافاته . وآية ذلك أن أوغسطين قد حدثنا عن والديه ،

وبعض أصدقائه من أمثال البيوس وتبريديوس ، كما حدثنا أيضا عن الأسقف المانوى فاوستوس والقديس أمبروسيوس أسقف ميلانو ، ولكنه فى كل هذه الأحاديث انما كان يحلل الشخصيات التى يتعرض لدراستها بأمانة ونزاهة ودقة ملاحظة ، دون أن يتحامل عليها أو يسخر منها أو يدافع عن نفسه على حسابها ! ولم يقتصر أوغسطين فى اعترافاته على سرد بعض الأحداث الخارجية أو الوقائع التاريخية ـ كما فعل بعض أصحاب التراجم الذاتية ـ وانما هو قد حلل لنا أدق حالاته النفسية وأعمق أزماته الروحية ، فكانت اعترافاته بذلك بمثابة تعبير حى عن « أوديسة » النفس القلقة المعذبة فى بحثها عن « الخلاص » أو « النجاة » . واذا كان الكثيرون من أصحاب « التراجم الذاتية » ـ من أمثال رينان وكيركجارد وغيرهما ـ قد حاولوا السير على نهج أوغسطين ، فما ذلك الا لأنهم قد وجدوا فى اعترافاته سيمفونية روحية تعبر عن مد النفس وجزرها ، فى هداها وضلالها . والحق أن أوغسطين لم يكن مجرد أديب يسرد علينا أحداث حياته بلغة عاطفية حماسية عامرة بالقوة والبيان ، وانما كان أيضا فنانا صادقا مرهف الحس لا يفوته أى ظل من ظلال الواقع ، ولا تغيب عنه أية خبيئة من خبايا النفس . وهذا هو السبب فى أن اعترافاته قد لاقت منذ البداية نجاحا منقطع النظير ، بدليل ما رواه لنا بعض المؤرخين من أن الكثيرين كانوا يبحثون عنها باهتمام بالغ ، حتى فى حياة صاحبها نفسه . ولئن كان البعض

قد عاب على أوغسطين كثرة التجائه الى التحسينات اللفظية ، والأساليب الخطابية ، والتشبيهات المجازية ؛ الا أن من المؤكد أن هذا الطابع الأدبى الذى اتسمت به اعترافات أوغسطين لا ينقلهـا عن نطاق « الحقيقة » ، الى نطـاق « الشعر » ، بل هو يجعل منها « ملحمة روحية » يمتزج فيها الايمان الحار بالتعبير الدافىء ، ويتعانق فيها الحس المرهف مع الفكر النفاذ . واذا كان الشاعر الألماني الكبير جيته قد أطلق على ترجمته الذاتية اسم « الشعر الحقيقة » ، فربمـا كان فى وسعنا أن نطلق على اعترافات القديس أوغسطين اسم « شعر الحقيقة » ! ولكننا هنا بازاء « شعر » يدق حتى ليكاد يستحيل الى « فلسفة » ، وحقيقة تتسامى حتى لتكاد تستحيل الى « اشراق صوفى » ! .

٦ ـ مختارات من « الاعترافات »

(أ) يتحدث أوغسطين عن جريمـة السرقـة التى اقترفها فى سن السـادسة عشرة ، بصحبة بعض رفاق السوء فيقول : « ولكن ، وا أسفاه ! ما الذى حببك الى نفسى أيتها السرقة ، جريمتى الليلية الخبيثة فى العـام السادس عشر من عمرى ؟ انك لم تكونى جميلة اذ معاذ الله أن تكون السرقة جميلة ! استغفر الله ! فما أنت بشىء حقيقى ، حتى أوجه اليك الحديث على هذا النحو ؛ حقا لقد كانت تلك الفاكهة التى سرقناها فاكهة جميلة ، ما دمت

أنت يا الهى الذى خلقتها ، وأنت الجمال الذى لا نظير له ، خالق كل شىء ، الاله الصالح ، الخير الأسمى وخيرى الحقيقى ... أجل ، لقد كانت تلك الثمار جميلة بحق ، ولكننى أؤكد لك أن قلبى المسكين لم يكن يشتهيها فى كثير أو قليل ، فقد كان عندنا ما هو خير منها ألف مرة وأذن فانا ما قطفت تلك الثمار الا لمجرد السرقة ، بدليل أننى ما كدت أقطفها حتى بادرت الى رميها ! فما تذوقته منها انما هو طعم الخطيئة وحدها ، وقد وجدت لذة كبرى فى التمتع بذلك المذاق . واذا كانت قطعة صغيرة من تلك الفاكهة قد عرفت طريقها الى فمى ، فما كان لها أى مذاق عندى اللهم الا مذاق خطيئتى !

والآن ، يا ربى والهى ، اننى لأتساءل عما أغوانى باقتراف هذه السرقة ... انها لم تكن تنطوى — بلا شك — على أى ضرب من ضروب الجمال ... فما الذى حبب الى نفسى مثل هذا الفعل الشائن ؟ أترانى قد أردت أن أحاكى الحرية الالهية ، ولكن بطريقة اجرامية معكوسة ! أترانى قد وجدت لذة كبرى فى أن أخرج على القانون عن طريق الاحتيال ، لأننى لم أكن لأستطيع مخالفته بالقوة ؟ أجل ، لقد كنت مستعبدا ذليلا ، فأردت أن أتظاهر بالحرية ، ومن ثم فقد أقدمت على اقتراف المحظور ، دون خشية أو حياء ، وكأننى كنت أريد أن أحاكى القدرة الالهية المطلقة ،

فجاءت محاكاتى مهزلة سخيفة غاشمة ! ... » (ك ٢ : ف ١٢ ١٤) .

(ب) كان لأوغسطين صديق عزيز عليه اختطفه الموت فى صباه ، فكتب أوغسطين يصف لنا حالته النفسية عقب تلك الوفاة : « ... لقد أظلم قلبى لفرط ما ألم به من أسى ، كما اتشح برداء الموت كل ما كنت انظر اليه من حولى . وهكذا صار وطنى مقرا موحشا لا أستطيع البقاء به ، وأصبح بيت أبى مكانا مفزعا لا أملك المكوث فيه ، وأضحى كل ما كان مشاعا مشتركا بيننا مثار عذاب أليم لنفسى فى وحدتها القاسية ... لقد كانت عيناى تبحثان عنه فى كل مكان ، ولكن شيئا لم يكن ليستطيع أن يهدينى الى طريقه ، فأصبحت أبغض سائر الأشياء ، لأنها لم تعد تستطيع أن ترشدنى اليه ، ولأن شيئا منها لم يعد يستطيع أن يقول لى : « تميل قليلا ، فانه سوف يعود اليك » ، كما كان يحدث ابان محياه حينما كان يغيب عنى الى حين . وهكذا أصبحت مشكلة كبرى بالنسبة الى نفسى : أسائل نفسى لم هى حزينة كل هذا الحزن ، ولماذا تقض مضجعى على هذا النحو المزعج ، فلا تكاد تخير جوابا ، لأنها هى نفسها لا تدرى من أمرها شيئا ! وحينما كنت

أقول لها ـ بحق ـ : « الا فلتضعى رجاءك فى الله » ، لم تكن لتستطيع الانصات الى أو الاستجابة لى : لأن ذلك الصديق العزيز الذى اختطفه الموت من بين أحضانها كان أحق عندها وأفضل من كل تلك الخيالات التى كان يطلب اليها أن تضع رجاءها فيها ... وأما الدموع فقد كانت هى عزائى الوحيد فى مصابى ، لأن قلبى المعذب بفقد صديقه أصبح يستعذبها الى حد التلذذ بصحبتها ، وكأنما هى صديقى الراحل نفسه » !

ويمضى القديس أوغسطين فى وصف ألمه لفقد صديقه فيقول : « لقد أصبحت أعجب كيف ظل الباقون من البشر الفانين على قيد الحياة ، بينما هو قد طواه الموت ، وهو الذى آثرته بحبى ، وكان قد كتب له الخلود من دون البشر أجمعين ! وزادت دهشتى حين وجدتنى أنا أيضا أعيش بعد موته ، وأنا الذى كنت منه بمثابة نفسه الأخرى ! وما أصدق البعض حين يقول : ان صديقى هو النصف الآخر منى ، فانى كنت أشعر حقا بأن نفسى ونفس صديقى لم تكونا الا نفسا واحدة فى جسدين ! وهكذا أصبحت الحياة بالنسبة الى عبئا ثقيلا لا يطاق ، لأننى لم أكن أريد

أن أعيش بشطر واحد فقط من وجودى ... » (ك ٤ : ف ٤ ، ٦ ، ٧) .

(ج) يصف لنا أوغسطين الجوهر الالهى وكيف أنه متمايز بالضرورة عن الطبيعة فيقول : « سألت الأرض فاجابت : « لست أنا الهك » ، وهكذا أيضا أجابنى كل ما على سطحها . سألت البحر وأعماقه وما فيه من زواحف وأحياء ، فاجابتنى كلها : « لسنا نحن الاله الذى تنشده ، بل أبحث فيما فوقنا » سألت النسيم العليل ، والعاصفة العاتية ، والهواء بما فيه من سكان ، فاجابتنى جميعا : « لقد أخطأ انكسيمانس فما نحن بالهك » . سألت السماء ، والشمس والقمر والنجوم ، فاجابتنى كلهما : « ونحن أيضا لسنا بالاله الذى تبحث عنه » . وعندئذ توجهت الى جميع الكائنات التى تحيط بمنافذ حواسى الجسدية وقلت لهـا : « اذا كنت أنت لست الاله الذى أبحث عنه ، اذن فخبرينى أين هو ، أو حدثينى على الأقل عنه » فصاحت كلها بصوت واحد قوى : « انه هو الذى صنعنا » ! (ك ١٠ : ف ٩) .

(د) وهذه فقرة أخرى من الفقرات المشهورة الواردة فى الاعترافات ، وأوغسطين يتحدث فيها عن حالته الروحية

فى الفترة التى كان يحرر فيها ترجمته الذاتية فنراه يقول :
« بعد لأى ما أحببتك يا الهى ! ماذا أقول ؟ أستغفر الله !
بل لقد كنت أنت باطنا فى أعماق نفسى ، بينما كنت أنا
خارجا عن ذاتى ! وهناك فى الخارج - كنت أبحث عنك ،
فكنت أتبرغ - بصورتى الدميمة الشائهة - فوق مخلوقاتك
الجميلة ! لقد كنت أنت معى ، وأما أنا فاننى لم أكن معك .
لأننى كنت منصرف عنك تحت تأثير أشياء ما كانت لتوجد
لو لم تكن قد وجدت فيك ! ولكنك ناديتنى فصك صوتك
مسمعى الثقيل ، وسطعت أمامى ، فبدد نورك ظلمات بصرى
الكفيف ، ونشرت عبيرك مسكا فواحا ، فتنسمته وفتحت
رئتى ، وهأنذا الآن أتنهد من أجلك ، بعد أن تذوقتك
فاشتهيت مذاقك ، واستمرأتك فزاد عطشى اليك . والآن
وقد مستنى نعمتك ، فاننى أتحرق شوقا للتنعم بذلك
السلم العميق الذى تمنحه لنا » (ك ١٠ : ف ٣٨) .

(هـ) يهتم القديس أوغسطين فى الكتاب الحادى
عشر من اعترافاته بمشكلة الزمان ، فنراه يبسط الحديث
فى أقسام الزمان ، وعلاقتها بالنفس ومدى امكان
قياسها ... الخ . وفيما يلى بعض العبارات القليلة التى

وردت في خاتمة هذا الحديث المسهب عن الزمان : « ... ان ما يبدو لي الآن واضحا بينا هو أنه لا المستقبل ولا الماضي بموجودين . وتبعا لذلك فانه لا يحق لنا أن نقول ان هناك ثلاثة أزمنة ، الا وهي الماضي والحاضر والمستقبل ، بل ربما كان الأصح أن نقول ان هناك ثلاثة أزمنة ، الا وهي حاضر الماضي ، وحاضر الحاضر ، وحاضر المستقبل . وهذه الأنحاء الثلاثة من الزمان انما توجد في ذهننا وحده ، لا في أي موضع آخر . وحاضر الأشياء الماضية انما هو الذاكرة ، وحاضر الأشياء الحاضرة انما هو العيان المباشر ، في حين أن حاضر الأشياء المستقبلة انما هو الانتظار أو التوقع . ولو جاز لي استعمال هذه التعبيرات ، لسلمت بأن هناك ثلاثة أزمنة . أجل فان هناك - بهذا المعنى - أزمنة ثلاثة بالفعل .

وأما اذا استمر الناس على القول بأن هناك أزمنة ثلاثة ، الا وهي الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، فانا لن نرى مانعا من ذلك ، ما دام هذا الاستعمال الخاطىء قد جرى مجرى العادة . ولما كانت المسألة قليلة الجدوى ، فانني لن أكترث بمعارضتها أو نقدها ، ولكن على شرط أن يفهم

المرء ما يقوله ، فلا يقع فى ظنه مثلا أن المستقبل موجود من ذى قبل ، أو أن الماضى ما زال موجودا بعد . وانه لمن النادر أن يتكلم الناس كلاما دقيقا صحيحا ، فان التعبيرات التى درجنا على استعمالها هى دائما أبدا خالية من كل دقة أو ضبط . ولكننى أحسب أن القارىء لابد من أن يكون قد أدرك ما أردت أن أقوله . (ك ١١ : ف ٣٦) .

ثم يعرج أوغسطين على مشكلة قياس الزمان ، فيحاول أن يثبت لنا أننا نجد فى النفس مقياس الزمان . وهو يقول فى ذلك : « أيها الذهن : انى لا أقيس الزمان الا فيك ... فان الانطباعات التى تتركها فيك الأشياء المنقضية تظل باقية بعد انتهائها ، وأنا أقيس هذه الانطباعات أثناء حضورها ، لا الأشياء التى أحدثتها وأصبحت فى حكم الماضى . واذن فانى حينما أقيس الزمان انما أقيس هذه الانطباعات الحاضرة ... وحينما نقيس فترة صمت أو سكون ، فنقول عنها انها استغرقت من الزمن قدر ما استغرقه هذا الصوت ، السنا نتصور - فى هذه الحالة - عن طريق الانتباه ، أن هذا الصوت ما زال يرن ، فنحاول أن نقيس الزمان الذى استغرقه رنينه ، حتى نتمكن عن هذا السبيل من أن نحدد لحظات السكون والمدة

التى استغرقتها فى الزمان ؟ ان المرء قد يتلو بفكره ـ دون أن يحدث صوتا مسموعا بلسانه وشفتيه ـ قصيدة أو أبياتا من الشعر أو خطبة أو حديثا ، فيدرك مع ذلك النسب الموجودة بين أجزاء القصيدة أو الخطبة ، ويقدر العلاقة المتبادلة القائمة بين مددها الزمنية ، وكأنما هو يتلوها بصوت مسموع سواء بسواء • وحينما يريد المرء أن يحدث صوتا محدد الطول ، فانه قد يعمد الى تحديد طوله فى ذهنه أولا ، بأن يتأمل فى سكون تلك المدة التى يمكن أن يستغرقها ، مستعينا فى ذلك بذاكرته التى تعى حساب الأطوال الزمانية ، لكى لا يلبث بعد ذلك أن يحدث الصوت الذى أراد احداثه ، فتخرج ذبذباته مساوية تماما لما قد حدده لها فى ذهنه من قبل ـ ولكن كيف يمكن أن ينقص المستقبل أو أن يستنفد ، فى حين أنه لم يوجد بعد ؟ وكيف يمكن أن يثرى الماضى ، فى حين أنه لم يعد موجودا ؟ أليس السبب فى ذلك أن هذه المظاهر جميعا انما تتعاقب وتتواجد فى النفس على صورة عمليات ثلاث ، ألا وهى : التوقع ، والانتباه ، والتذكر ؟ ألسنا نلاحظ أن موضوع التوقع يمر أمام الانتباه لكى لا يلبث أن يستحيل الى ذكرى ؟ •• » (ك ١١ : ٣٦ ، ٣٧) •